

الفصل العاشر

في المرحاض الخارجي

داغستان هي الجزء الجنوبي من روسيا، أرض متنوعة عرقياً على الحدود مع بحر قزوين، وترتفع في قمم جبال القفقاز الشرقية على الحدود مع الشيشان، ويمثل المسلمون أغلبية فيها، كما هو حال الشيشان، ولكنها أيضاً أحد أكثر الأماكن غير المتجانسة في العالم، تقطنها عشرات القوميات واللغات. وعاشت تحت الحكم الروسي أولاً في بداية القرن التاسع عشر، وانضمت إلى جمهوريات القفقاز الأخرى لتكوين دولة محدودة الاستقلالية بعد الثورة البلشفية. مع انهيار الاتحاد السوفييتي، لم تنضم إلى الشيشان في إعلان استقلالها عن روسيا، فالانفصال يحظى بتأييد شعبي قليل هناك بين مختلف الشعوب، على الرغم من مناقشة فكرة التوحيد مع الشيشان كثيراً في عقد التسعينيات.

القائد الذي قاد عملية التوغل من الشيشان في 7 أغسطس/آب، شامل باسايف، أعلن عزمه إقامة دولة إسلامية في داغستان، ويأمل في توسيع حملته السياسية والأيدولوجية للعنف والإرهاب من أجل تعزيز سلطته الخاصة في الشيشان. جنباً إلى جنب مع المقاتل السعودي خطّاب، الذي قاد قوة من ألفي مقاتل، استوليا على القرى الصغيرة على طول الحدود الجبلية، ولم يكن الهدف المحدد من الهجوم واضحاً، لكن بفضل التوترات التي تصاعدت منذ اختطاف الجنرال شبيغن (عثر على جثته لاحقاً) فقد كان الجيش الروسي متحضرًا على نحو أفضل. كان سيرجي ستياشين وزيراً للداخلية، وبعد/أيار أصبح رئيساً للوزراء، وقد تمكن من وضع خطط للشرطة وللعملية العسكرية التي من شأنها استعادة

النظام الاتحادي في جمهورية الشيشان. وكان بوتين، رئيس جهاز الأمن الفيدرالي ورئيس مجلس الأمن الروسي ليلتسين، مشاركًا في وضع تلك الخطط، وقد ادعى ستيباشين في وقت لاحق أنهم اتفقوا على توقيت العملية- أغسطس/ آب أو سبتمبر/ أيلول- قبل مدة طويلة من توغل باسايف¹. خطة ستيباشين محدودة الأهداف العسكرية: الاستيلاء على السهول في الثلث الشمالي من الشيشان، والأراضي المنخفضة حتى نهر تيريك، وخلق حاجز وقائي يطوّق التطرف والإجرام في جبال الجمهورية.

عشية اجتياح باسايف في داغستان، كان في ذهن بوتين اليوم أكثر طموحًا؛ فقد طلب من يلتسين (السلطة المطلقة) للتنسيق بين جميع الوزارات الأمنية، والتحرك بعمليات عسكرية؛ أي السلطة التي تتبع رسميًا للرئيس بصفته قائدًا عامًا، فوافق يلتسين للمرة الأولى على أن يفوض رئيس الوزراء بكثير من صلاحيات الرئاسة²، وفي اليوم التالي لتعيينه في أغسطس/ آب، أعلن بوتين أن قادة روسيا سيعيدون بسط السيطرة على داغستان، وأعطاهم مهلة أسبوعين، ولم يكن ترشيحه قد تأكد بعد. قصفت القاذفات الروسية وطائرات حوامة قبل 13 أغسطس/ آب القرى التي احتلها المقاتلون الشيشان، وهدد بوتين بشن ضربات جوية في الشيشان نفسها، وفي اليوم التالي فعل الروس بالضبط ذلك، فقصفوا القرى التي تعرضت لتوغل قوات تستخدمها قواعد لها.

في 16 أغسطس/ آب تبنى مجلس الدوما قرارًا بترشيح بوتين بهامش ضيق بعد مداوات ركزت على الحملة الانتخابية أكثر مما ركزت على كفاءته لشغل هذا المنصب، أو على العنف الجاري في الجنوب. حصل على 233 صوتًا، بزيادة 7 أصوات فقط عن الحد الأدنى المطلوب، وأقل بكثير من ستيباشين، أو بريماكوف، أو كيرينكو³، وبدا بوتين شخصية انتقالية في أحسن الأحوال، سرعان ما سيركن جانبًا. في كلمته المقتضبة أمام البرلمان، تعهد بوتين باستعادة الانضباط في الحكومة، وذكّر جنرالات روسيا بالموعد النهائي لصد الغزاة في داغستان؛ «تبقى لديهم أسبوع واحد اليوم فقط».

وبعد أسبوع انسحب مقاتلو باسايف، بعد أن أخطؤوا حساب الوحشية الانتقامية الروسية، وبسبب قلة الدعم المحلي في داغستان لانفاضة إسلامية. ومع أن داغستان فيها أتباع السلفية، ظلت الجماعات العرقية لا تعد ولا تحصى في الجمهورية، وأكثر ولاء للدولة الروسية من الشيشان⁴، وانضمت الشرطة المحلية والقوات شبه العسكرية إلى القوات الفيدرالية في مقاومة الغزاة، وفي 26 أغسطس/ آب رفع العلم الروسي ذو الألوان الثلاثة على القرى التي احتلت ثم دمرت في غضون أسبوعين من الغارات الجوية. في اليوم التالي سافر بوتين إلى داغستان، يرافقه الصحفيون في الصحف والتلفاز، وكانوا لا يعرفون وجهتهم حتى هبطت الطائرة بهم في العاصمة الإقليمية ماخاتشكالا. ومع إجراءات أمنية مشددة وسرية تامة، استقل الوفد المرافق طائرة حوامة، انطلقت بهم إلى بوتليخ، وهي قرية جبلية في وسط الغزو، على مسافة خمسة أميال فقط من الحدود الشيشانية. وارتدى بوتين ملابس غير رسمية، بنطالاً وجاكيتاً، ووجّه تحية لمجموعة من المقاتلين الروس والداغستانيين، ثم قلدتهم خمسين ميدالية، وأعلن أن ثلاث ميداليات أبطال روسيا، وهي أعلى وسام عسكري في البلاد، ستمنح في وقت لاحق في مراسم في الكرملين، ووساماً رابعاً يمنح بعد الوفاة.

وفقاً للإحصاء الرسمي لقي ما يقرب من ستين جندياً روسياً حتفهم في أثناء القتال، لم يعلن أحد عدد الإصابات بين المتمردين أو سقوط ضحايا من المدنيين، لكن بوتين كان هناك لإعلان قضيتهم فقط، فالخسائر تستحق ذلك، وبدأ بتقديم نخب أولئك الذين لقوا حتفهم، لكنه توقف في منتصف الجملة؛ قال: «انتظروا ثانية من فضلكم! أود أن أشرب على نخب المصابين، وأتمنى السعادة لجميع الحاضرين، ولكن لدينا كثير من المشكلات والمهام الكبيرة التي تنتظرنا، وأنتم تعرفون ذلك جيداً. أنتم تعرفون مخططات العدو، ونحن نعرفها أيضاً، ونعرف الأعمال الاستفزازية المتوقعة في المستقبل القريب، ونعرف المناطق التي نتوقعهم فيها، وهلم جرّاً، ليس لدينا الحق أن نسمح لأنفسنا حتى لثانية واحدة بالضعف، لا ثانية واحدة، لأننا لو تقاعسنا فسيبدو الذين ماتوا أنهم لقوا حتفهم عبثاً، لذلك أقترح أن نضع اليوم كؤوسنا على الطاولة، وبكل تأكيد سنشرب نخبهم، ولكن في وقت لاحق»⁵.

كانت الزيارة الخاطفة لبوتين مسرحية سياسيةً لسياسي مبتدئ، لكن بالمقارنة مع يلتسين كانت عميقة: الشباب والعنفوان مقابل الكهولة والعجز. أمة مكتئبة مقسمة تتذوق اليوم نكهة النصر العسكري، برئاسة رئيس وزراء غالبًا ما يُعدُّ غير متحيِّز، هذا إن كانوا يعرفون كثيرًا عنه. لكن تصريحات بوتين تحمل أيضًا بذور التحذير- وبعضهم ظن أنها إنذار مقدم- بأن الصراعات لن تنتهي بانسحاب باساييف عائدًا إلى الشيشان.

بعد أقل من أسبوع، في ليلة 4 سبتمبر/أيلول، وقع انفجار هائل أطاح ببنية مؤلفة من خمسة طوابق في بويناكسك، التي تبعد أربعين ميلًا إلى الجنوب من العاصمة الداغستانية. كان المبنى يضم الجنود الروس وعائلاتهم، وكثير منهم كانوا قد جلسوا أمام أجهزة التلفاز الخاصة بهم لمشاهدة مباراة لكرة القدم بين أوكرانيا وفرنسا، وأسفر الانفجار- وهو ربما انفجار سيارة ملغومة- عن مقتل 64 شخصًا، وفي اليوم التالي عبرت الميليشيات الشيشانية مرة أخرى إلى داغستان، وهذه المرة قرب خاسافيورت، المدينة التي وقَّعت فيها اتفاقات السلام التي أنهت الحرب الأولى قبل ثلاث سنوات.

انفجر يلتسين غاضبًا في اجتماع 6 سبتمبر/أيلول لمجلس الأمن الروسي، وجأ قائلاً: «كيف لنا أن نفقد منطقة بأكملها في داغستان؟ هذا لا يمكن تفسيره إلا بإهمال من الجيش». كان يلتسين قد منح سلطات واسعة لرئيس وزرائه الجديد، وبعد النجاح الأولي وقعت الكارثة، يبدو أن توقعات الزوال السريع لبوتين كانت في مكانها.

في التاسع من سبتمبر/أيلول انتقلت المذبحة من القفاز إلى موسكو، فبعد منتصف الليل، وقع انفجار في وسط مجمع سكني مؤلف من تسعة طوابق في شارع غوريانوف، ليس بعيدًا عن التواء كبير في نهر موسكو، وأدت قوة الانفجار، التي تعادل مئات الأبطال من مادة تي إن تي، إلى شق المبنى المستطيل الواسع إلى نصفين اثنين، كما لوقسم بفأس عملاقة، وتحول كل من كان نائمًا بداخله إلى كومة من الحطام المحروق. وقد اعتقد المحققون في البداية أنه ناجم عن تسرب الغاز، لكن في اليوم التالي بدأ المسؤولون يشكُّون في كونه عملاً إرهابيًا، وهو الأسوأ من أي وقت مضى في العاصمة الروسية. اتصال هاتفي من مجهول

بوكالة أنباء إنترفاكس قال إن الانفجارات في موسكو وبويناكسك أفعال متعمدة؛ ردًا على الغارات الروسية في الشيشان وداغستان، وكان المتصل نفسه أو متصل آخر (لهجته من شمال القفقاز)، حذر مكتب دويتشه ويلي في موسكو قبل الانفجار بأيام أنه سيكون هناك ثلاثة تفجيرات في المدينة لمعاوية روسيا، «إذا كانت متأكدة أن هذا عمل إرهابي، وكل شيء يؤدي لهذه الطريقة، فيجب علينا أن نعترف بأن صدى الحرب في داغستان يُسمع في موسكو»، كما أعلن رئيس البلدية لوجكوف، وتعهد بتشديد الاحتراوات الأمنية⁷. أربعة وتسعون شخصًا لقوا حتفهم نتيجة للقصف، وجرح المئات.

يوم 11 سبتمبر/أيلول، وبينما كان عمال الطوارئ يواصلون ترحيل الأنقاض في شارع غوريانوف، سافر بوتين إلى نيوزيلندا لحضور اللقاء السنوي لمنتمى التعاون الاقتصادي لمنطقة آسيا- المحيط الهادئ، بدلًا من يلتسين المريض. يجمع المنتدى قادة إحدى وعشرين دولة، وحضور بوتين لأول مرة على الساحة الدولية كان لافتًا، وكان لدى القادة الغربيين فضول للقاء رئيس وزراء يلتسين الخامس خلال الثمانية عشر شهرًا الماضية، مع أن من توقعوا له الاستمرارية مدة أطول من الآخرين الذين سبقوه كانوا قلة. وكان العنف في جميع أنحاء الشيشان ذلك الصيف قد أثار بالفعل مخاوف في الغرب، فقد استخدم الرئيس كلينتون لقاءه مع بوتين للتعبير بلطف عن المخاوف بشأن المأساة الإنسانية في المنطقة، وحثه على حل سياسي يمكن أن يتضمن السماح لمراقبين دوليين على الأراضي الروسية.

بدأ بوتين بأدب، معربًا عن ثقته أن التوتر بشأن كوسوفا في وقت مبكر من العام هو السبب، وأمل في التوصل إلى تفاهم متبادل حول التهديد المشترك المتمثل في الإرهاب الدولي. عندما ركز كلينتون على الشيشان، مع كل ذلك، «انقبض فم بوتين متشدداً، وتصلب موقفه، ولاحظ على وجهه نظرة بعينين حادتين»⁸، ورسم خريطة على منديل ورقي، موضحًا لكلينتون أن الخطط التي سبق أن وضعت، ترمي إلى توغل محدود يقف عند نهر تيريك، وشدد على أن القتال في داغستان لم يكن مجرد غارة معزولة، ولكن بداية لغزو روسيا، بدعم من الإرهابيين الدوليين، من ضمنهم أسامة بن لادن. وقال لكلينتون إن بن لادن، الذي يتزعم

شبكة القاعدة شن هجمات على السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا في العام قبل الماضي، وموّل المقاتلين الإسلاميين الشيشان، بل زار بنفسه الشيشان (على الرغم من أن الأمريكيين كانوا غير قادرين على تأكيد ذلك)⁹، وكان أن أسرَّ للرئيس الأمريكي بما لم يبلغ به أبناء وطنه: أن الجيش الروسي على وشك التدخل مرة أخرى في الشيشان.

كان بوتين لا يزال في نيوزيلندا يوم 13 سبتمبر/أيلول عندما دمر انفجار مبنى آخر، وهذه المرة على طريق كاشرسكوي السريع جنوب موسكو، ليس بعيداً عن شارع غوريانوف، وبلغ عدد القتلى 118، وتحول الخوف في البلاد إلى هستيريا، وكانت تقارير الدوافع المحتملة مشوشة ومتناقضة، وكان بوتين قد تردد هو نفسه بعد الهجوم الأول أن يعده هجوماً إرهابياً، ولكنه اليوم رد بغضب قائلاً إنه من المستحيل أن نتصور أن كل هذه التفجيرات يمكن أن تكون حوادث، وقال: «هؤلاء الذين فعلوا ذلك لا يمكن أن يسموا بشراً»، وأضاف: «إنهم لا يمكن حتى أن يسموا بالبهائم»¹⁰، وقطع أول زيارة دولية له بصفة رئيس للوزراء، وعاد إلى موسكو.

من كانوا وحوشاً بالضبط كانوا غير معرفين بيقين، وبحسب ما ورد فقد أعلن المتطرفون الداغستانيون مسؤوليتهم عن التفجير في بويناكسك فقط، لكن قادة الشيشان نفوا ضلوعهم في تفجيرات موسكو، ومنهم شامل باسايف، الذي لا يزال مقاتلوه في داغستان، حتى إن كرر باسايف وعده بإقامة دولة إسلامية في جنوب روسيا¹¹. الزعيم الشيوعي المتشدد، فيكتور إيوكين، قال لإيتار تاس إن الهجوم الأول غير مرتبط بالفقاز وإنما هو مرتبط بالخلافات السياسية بين مؤيدي يلتسين ورئيس البلدية لوجكوف، والتفجيرات - قال - كانت ذريعة لإلغاء الانتخابات البرلمانية المقرر إجراؤها في ديسمبر/كانون الأول، وقال: «الهستيريا السياسية تدعّم على نحو مصطنع»¹².

وصرح ألكسندر ليبيد، محافظ في كراسنويارسك، لصحيفة لوفيجارو الفرنسية أن الشيشان ليس لديهم ما يكسبونه من هذه الهجمات، في حين أن يلتسين و(الحاشية) لديهم ما يكسبونه منها، وقال ليبيد: «لا بد من وضع الهدف؛ وهو بث الرعب الشامل، وزعزعة

الاستقرار الذي يسمح لهم بالقول وقت الحاجة: عليكم ألا تذهبوا إلى الدوائر الانتخابية؛ وإلا فستخاطرون بأنفسكم أنتم وصناديق الاقتراع»¹³.

الذعر في موسكو أدى إلى وضع نقاط تفتيش للشرطة، وحملات اعتقال لمئات الأشخاص لسبب قليل مما يبدو أنه من القفزاز.

أسس المواطنون دوريات خاصة بهم، واكتشفت الشرطة ستة وسبعين كيساً من المتفجرات في سقيفة في موقع بناء في منطقة كابوتينيا، دمغت تلك الأكياس بعلامة السكر من مصنع في كاراشايفو-شركيسيا في القفزاز، وتتضمن المواد ما يكفي لتدمير عدة مبانٍ سكنية أخرى¹⁴، أنهى الاكتشاف التفجيرات في موسكو، ولكن يوم 16 سبتمبر/أيلول، وقع التفجير الرابع في مبنى سكني، وهذه المرة في جنوب مدينة فولجودونسك، على بعد مئات الأميال من موسكو أو الشيشان. اختلف الهجوم عن التفجيرات الأخرى فقط في التفاصيل؛ إذ وقع عند الفجر عندما كان معظم الناس في منازلهم نائمين، وحملت المتفجرات في شاحنة كانت متوقفة خارج المبنى، بدلاً من أن تكون مخبأة في الداخل، وهو ما قلل من الخسائر. قوة الانفجار فصمت واجهة المبنى، لكن لم تدمره، وهذه المرة قُتل سبعة عشر شخصاً، وأصبح اليوم عدد القتلى من موجة الإرهاب ما يقرب من ثلاث مئة قتيل.

استمرت الضربات الروسية الجوية المحدودة داخل الشيشان، لكن صعد بوتين اليوم الصراع، ويوم 23 سبتمبر/أيلول قصفت الطائرات الروسية للمرة الأولى عمق الجمهورية، وضرب مطار جروزني ومصفاة النفط، وخرج الحريق عن نطاق السيطرة؛ لأن السلطات المحلية لم يتبق لديها إلا قليل من معدات الإطفاء. وكانت الضربات عقابية أكثر منها إستراتيجية؛ فالهجوم على المطار دمر إحدى الطائرتين العاملتين في الشيشان، وخط أنابيب قديماً لا أهمية عسكرية له.

زار بوتين كازاخستان، وتعهد أن روسيا ستدافع عن نفسها ضد «عصابات المرتزقة الأجانب والإرهابيين»، لكن أصرَّ على أنه لا يعتزم خوض حرب جديدة في الشيشان، وعندما

سئل عن الغرض من الضربات الجوية، فارت أعصابه، واختفت تلك الطريقة المقتضبة التي شهدتها الروس في رئيس وزرائهم الجديد الزاهد الصارم، فبدا وكأنه مقاتل شوارع. كان جوابه صريحاً، ولغته تحمل من بذاءة العامية: «أنا تعبت من الإجابة عن هذه الأسئلة»، أجاب بنزق، «الطائرات الروسية تضرب فقط معسكرات الإرهابيين، سنلاحقهم أينما كانوا، وإذا- العفو منكم- وجدناهم في المرحاض، فسوف نبيدهم في المرحاض الخارجي»¹⁵.

التفجير الذي لم يحدث وضع كل شيء عن الأحداث في الصيف موضع تساؤل، وفي مساء يوم 22 سبتمبر/أيلول، في الليلة التي سبقت تصريح بوتين الشهير حول المرحاض الخارجي، لاحظ سائق حافلة يعيش في ريزان، جنوب شرقي موسكو، سيارة لادا بيضاء متوقفة خارج مبنى شقته، وقد وقفت امرأة شابة- يظهر عليها بوضوح أنها من العرق الروسي- بقلق عند مدخل المبنى، في شارع نوفوسيلوفايا، وكان يجلس داخل السيارة رجل، وسرعان ما ظهر رجل آخر من المبنى، وانطلق الثلاثة معاً بعيداً، ولأن الأوضاع كانت على حافة الهاوية بسبب التفجيرات السابقة، استدعى سائق الحافلة الشرطة بالهاتف.

في البداية بدا أن الشرطة غير مهتمين، ولكن عندما وصل الضباط أخيراً اندلعت حالة من الذعر؛ ففي الطابق السفلي وجد عريف في الشرطة، هو أندريه شيمائشيف، ثلاثة أكياس موسومة بالسكّر، تماماً كتلك التي كانت في التخزين المؤقت في موسكو، والجهاز الذي يبدو أنه المفسج، وحُدّد جهاز الضبط على الساعة الخامسة والنصف 5:30 صباحاً، فأمرت الشرطة فوراً بإخلاء المبنى المكون من اثني عشر طابقاً، واستدعي خبير المتفجرات المحلية، يوري تكاشينكو، لنزع فتيل المؤقت، ففحص محتويات الأكياس بمحلل غاز، ليكتشف أنها ليست سكرًا وإنما مادة متفجرة تدعى الهكسوجين، كتلك التي استخدمت في واحد على الأقل من تفجيرات موسكو¹⁶. وفي صباح اليوم التالي تناقل الناس أخباراً تفيد أن تفجيراً كارثياً آخر أمكن تجنبه بأعجوبة.

لم يكن المزاج في ريزان احتفالياً، لكن تلقى السكان والشرطة المحلية الثناء، وفي تصريحات بثها التلفاز قال بوتين: «أريد أن أشكر السكان ليقظتهم»، وبينما كان سكان

المدينة فاقدين أعصابهم يفكرون ما الذي يجري، كان محققو الشرطة يقتربون أكثر من المفجرين المحتملين، ووجدوا سيارة اللادا المهجورة في موقف للسيارات، وأوقف رجلان يشبهان الرجلين اللذين أبلغ عنهما خارج المبنى السكني، لكنها أبرزت بطاقات الـ FSB وأُطلقا، وفي ذلك المساء سمع عامل المقسم المحلي متصلاً يقول إنه لا يمكن أن يخرج من المدينة دون تفتيش، فرد عليهم الصوت على الطرف الآخر أن عليهم أن يتفرقوا ويخرجوا بأفضل ما يمكن، فأبلغ عامل المقسم الشرطة، وتتبع الشرطة المكاملة إلى موسكو، ومما أثار دهشتهم أن رقم الهاتف ينتمي لـ FSB.

في ذلك المساء، بدأ المتحدث باسم جهاز الأمن الفيدرالي يلقي ظللاً من الشك على كل ما يحدث في ريازان، مدعيًا أن اختبارًا أوليًا أظهر عدم وجود آثار متفجرات بين المواد التي صادرتها الـ FSB وجلبها إلى موسكو، ولم يكن هناك أي صاعق تفجير، وإنما أجزاء منه فقط. وفي اليوم التالي تحدث مدير جهاز الأمن الفيدرالي، نيكولاي باتروشييف، للصحفيين بعد حضور اجتماع طارئ للحكومة لمناقشة التفجيرات. باتروشييف، ضابط سابق في الـ (كي جي بي)، وزميل بوتين من بطرسبورغ، لحق بصديقه إلى موسكو وترفع في الرتب معه، وتولى منصب مدير جهاز الأمن الفيدرالي عندما أصبح بوتين رئيسًا للوزراء في عام 1999م، وظل واحدًا من ملازميه الأكثر وثوقًا. أعلن أن المسلسل بكامله في ريازان كان مجرد مناورة تدريبية ترمي لاختبار الاستعدادات للتفجير، بالضبط كتلك التي تضرب المدن الروسية، وقال إن التدريبات أجريت في عدة مدن، ومن الواضح أنها لم تنجح لعدم وجود تفجيرات تحاكي تلك التي وقعت في ريازان في أي مكان آخر، وقد حيا سكان المدينة والشرطة لما يتحلون به من يقظة عندما اكتشفوا هذه المتفجرات المفترضة، وأضاف: «في الوقت ذاته، أريد أن أعتذر لهم»¹⁷.

بيان باتروشييف نقلته فورًا الصحف في موسكو وخارجها، لكنه فاجأ الناس في ريازان وشوشهم، فقد لا يكون السكان والشرطة على علم باختبارات يقظتهم، ولكن قسم الـ FSB المحلي أيضًا قال إنه لا علم له بأي تدريبات؛ ولا حتى المحافظ أو العمدة أو أي شخص

آخر في المدينة. تأخير إبلاغ السكان المدعورين في المدينة يومًا ونصف يوم يبدو أنه لا يمكن تفسيره، خاصة أن وزارة الداخلية حشدت 1200 ضابط لتنفيذ حملة اعتقالات للقبض على المشتبه فيهم، والبحث عن مزيد من القنابل، وأن الضباط الذين شاركوا في نزع فتيل القنبلة يعرفون ما رأوه بأعينهم، فتدريبات الـ FSB إما أنها تختبر الاستعدادات لمواجهة الإرهاب أو أنها خدعة بحد ذاتها. في ذلك المساء اتصل أحدهم بإيخو موسوفي، المحطة الإذاعية التي تشجع المناقشة السياسية المفتوحة إلى حد معقول، وعرف عن نفسه بأنه ضابط أمن، على الرغم من أنه لم يصرح باسمه أو يكشف عن هويته، وأعرب عن حيرته في تفسير الـ FSB، وقال إن ذلك غير وارد على الإطلاق، وقال: إن الناس بدأت تفكر أن الـ FSB متورطة بطريقة ما في كل التفجيرات¹⁸.

في 29 سبتمبر/أيلول، أعرب بوتين عن استعداده للتفاوض مع أصلان مسخادوف، رئيس الشيشان، ولكن بشرط أن يدين كل أشكال الإرهاب، ويطرد الميليشيات المسلحة في الجمهورية، ويعتقل ويسلم المجرمين المطلوبين، ومن ضمنهم باسايف، وخطاب، وقادة آخرين يفترض أن يكونوا على رأس القائمة، كان إنذارًا، وليس عرضًا. كان مسخادوف قد استنكر التوغل في داغستان والتفجيرات في روسيا، ولكن سلطته الرئاسية ضعيفة جدًا لبسط سيطرته على باسايف أو خطاب، فضلًا عن القبض عليهم وتسليمهم للروس؛ «لا يمكن أن تكون مهمتي مجرد القبض على باسايف»، قال لصحفي قبل يومين من مهلة بوتين، «الناس هنا لا يفهمون ذلك، بعد كل شيء، قاتلنا معًا لاستقلال بلادنا»¹⁹، وفي اليوم الذي قدّم فيه بوتين العرض، خطط مسخادوف للسفر إلى داغستان، ولقاء رئيسها لاستكشاف إمكانية إجراء محادثات مع موسكو، لكنه اضطر إلى إلغاء ذلك؛ لأن المحتجين في داغستان أغلقوا الطريق²⁰، وكان الوقت متأخرًا جدًا على أي حال.

في اليوم التالي تدفق جنود وضباط الجيش الروسي ووزارة الداخلية إلى الشيشان، وعلى الرغم من إنكار بوتين، بدأ الغزو الكلي، فقد شارك نحو 40 ألف جندي في الحرب الأولى في الشيشان، وكثير منهم من المجندين الذين لم يستوفوا تدريبهم، لكن بوتين

أعطى الأوامر لأكثر من 93 ألف جندي، أي ما يعادل تقريباً حجم القوة السوفييتية التي غزت أفغانستان، البلد الذي تزيد مساحته على مساحة الشيشان بما يعادل أربعين ضعفاً²¹، وفي الأول من أكتوبر/تشرين الأول أعلن أن روسيا لن تعترف بحكومة مسخادوف، وبدلاً من ذلك اعترفت بالبرلمان الإقليمي الذي انتخب في عام 1996م في أثناء الاحتلال العسكري الروسي، وأعضاؤه اليوم معظمهم في موسكو أو في أي مكان آخر، وكانوا قد هربوا عندما انسحب الروس بعد الحرب الأولى، وانتهى البيان بفرص ضئيلة للتوصل إلى تسوية عن طريق التفاوض؛ فبوتين لا يريد حقاً أي تفاوض.

انضم مسخادوف إلى باسايف وغيرهم من القادة الأكثر تطرفاً من أجل الدفاع الدموي عن الوطن الشيشاني، وقبل 5 أكتوبر/تشرين الأول، احتلت القوات الروسية الثلث الشمالي من الشيشان، وصولاً إلى نهر تيريك، تبعاً للخطة السرية التي وضعت في الربيع وعقد العزم على تحقيقها، وبعد أسبوع عبروا النهر وتحركوا باتجاه جروزني.

تعهد بوتين بعدم تكرار أخطاء الحرب الأولى، وقد فسر كثيرون قوله هذا بأنه لن يشن هجوماً برياً كاملاً للسيطرة على الجمهورية بأكملها، ولكن هذا بالضبط ما يرمي إليه، إلا أنه هذه المرة نشر القوة الكاملة للقوة الجوية الروسية لتقليل الخسائر في الأرواح لدى القوات الروسية، بغض النظر عن عدد القتلى داخل الشيشان، وأضاف أن «الفرق هو أننا هذه المرة لن نرسل أبناءنا لامتصاص نار العدائية»، قال لصحيفة فريميا؛ «سوف نعمل بمساعدة القوى الحديثة ووسائلها لتدمير الإرهابيين من مسافة بعيدة، سوف ندمر البنية التحتية، وسيكون عمل القوات الخاصة فقط تنظيف الأراضي، ولن يكون هناك أي هجوم جبهوي أكثر من ذلك. سنتولى حماية رجالنا، وبطبيعة الحال، هذا يتطلب وقتاً وصبراً. أنا بنفسني سوف أستفيد من هذه الفرصة، وأنا أحث قراءكم وغيرهم لفهم هذا وإدراكه أيضاً، فإما أن نمضي بالهجوم كما في الماضي مع صيحات الشيوعيين (إلى الأمام!) غير آبهين بخسائرننا، أو أننا ندمر من الجو بصبر ومنهجية». «وماذا لو أخفقت الضربات الجوية؟»، سأله الصحفي، فأجاب: «سوف ننجح، لن يكون هناك (لو)»²².

في 20 أكتوبر/تشرين الأول احتدم القتال، وسافر بوتين سرًا من موسكو إلى الشيشان في رحلة شملت طلعة قصيرة على طائرة سوخوي - 25، وكما فعل في داغستان قُدد بوتين مرة أخرى الطيارين في القاعدة الجوية ميداليات، واجتمع بشيوخ القرية في زنامينسكوي، وهي قرية داخل الحدود الشيشانية، كانت حينها قد تحررت من قبل الروس، وأعرب عن أسفه لإخفاق الحكومة الشيشانية بدفع رواتب ومخصصات التقاعد، وإخفاقها في الحفاظ على العيادات وفتح المدارس، على الرغم من أن الميزانية والأموال من موسكو لم يتوقف تدفقها قط. وكان هدف روسيا استعادة النظام، قال، عن طريق تخليص الأرض «من تلك العصابات الغارقة بالدم ليس إلى مرافقهم وحسب، وإنما إلى أكتافهم». وأضاف: «أحد أهداف زيارتي إلى هنا اليوم هو أن نظهر لكم أننا وأنتم كل متكامل، وأن المشاعر المعادية للشيشان والمناهضة للقوقاز لا يمكن تحريكها في روسيا، فالبلد كله يعرف، ويمكن أن يرى أنه ما من أحد متعطش للدماء هنا»²³. وفي اليوم التالي هبط صاروخ روسي في السوق المركزي في جروزني، وأسفر عن مقتل عشرات الأشخاص، معظمهم من النساء والأطفال الذين خرجوا للتسوق لتضاؤل إمدادات الغذاء.

على الرغم من الضجة التي أثيرت حول تفجيرات الشقق السكنية، وتأجيج المشاعر المضادة للشيشان في موسكو وأماكن أخرى من روسيا، لم تحظ الحرب حتى ذلك الوقت بالدعم السياسي العالمي، وخاصة بين السياسيين المتنافسين على السلطة في عهد ما بعد يلتسين، وظلت ذكرى الحرب الأولى غير مندملة. وبحلول منتصف سبتمبر/أيلول كان أكثر من مئتي جندي روسي قد لقوا حتفهم في القتال على طول الحدود الشيشانية، وكان عدد القتلى داخل الشيشان أعلى من ذلك بكثير، ربما بالآلاف. يفجيني بريماكوف، ولوجكوف، اللذان كانا في سباق ليحلا محل يلتسين، أعربا عن تأييدهما لـ (تحديد) الضربات ضد المعسكرات الإرهابية، على ألا تكون غزوةً جديدًا، «أنا أقف بقوة ضد العمليات الموسعة التي قد تتطور إلى أحداث كتلك التي شهدناها في الماضي، علينا ألا نعود إلى ذلك»²⁴، وردَّ لوجكوف على الهجمات بعنصرية مبطنة، وإعادة تأسيس متطلبات العهد السوفييتي، وكان

اقتراحه لحل الصراعات بناء جدار على غرار جدار برلين على طول الحدود الشيشانية، لا استعادة الأراضي.

كثير من مؤيدي يلتسين الليبراليين عبروا عن شكوكهم في فعالية وأخلاقية الحملة العسكرية التي تقتل المدنيين الذين كانوا، في الوقت الراهن على الأقل، من مواطني روسيا. وبحلول نهاية سبتمبر/أيلول فرَّ أكثر من مئة ألف شيشاني، أغلبهم من كبار السن والنساء والأطفال، إلى إنغوشيا المجاورة طلباً للأمان، وخلقوا أزمة لاجئين كانت روسيا غير مستعدة للتعامل معها.

كانت البلاد غارقة مرة أخرى في الشائعات أن يلتسين سيستقيل، وأنه سيقيل بوتين وحكومته الجديدة، وأن الانتخابات البرلمانية المقرر إجراؤها في ديسمبر/ كانون الأول ستلغى، واضطر بوتين إلى نفيها جميعها، وكانت النخبة السياسية في روسيا، تعد بوتين ينتحر سياسياً بشن الحرب البرية الجديدة على الشيشان. «بوتين يتصرف كالطيَّار الانتحاري حين رمى بكامل مخزون رأس ماله السياسي في الحرب، حرقه إلى الأرض»، هذا ما كتبه بوريس يلتسين، الرجل الذي ما كان ليرمي بكامل ثقل الجيش الروسي في حرب الأولى²⁵.

تصرف بوتين كما لو أنه كان غير مبال بسياسة الحرب، ربما لم يكن لديه الخبرة في الحرب الأولى في الشيشان، وربما لأنه لم يكن لديه أدنى شك بـ(مهمته التاريخية). لم يستجب للرأي العام أو للنفعية السياسية؛ كما لاحظ يلتسين، وقال: «لم يتوقع أن تستمر مسيرته إلى ما بعد أحداث الشيشان»، بدت أفعاله تحدياً غير سياسي، بل وشخصية لحد كبير، كما لو أن التوغل في داغستان إهانة عليه الانتقام لها.

ومع ذلك، أثبت سلوك بوتين في الحرب أن له شعبية كبيرة فاجأت يلتسين وغيره كثيرين؛ فالحرب الأولى لم تحظ بشعبية، خلافاً لرد الفعل الجماهيري في الثانية؛ هذا لأن خوض الأولى كان بقليل من الحماسة، لأن الجيش الروسي المؤسس من بقايا الجيش الأحمر العظيم كان يعوزه الإعداد الجيد والتجهيز المتكامل، فخسروا أمام مجموعة فوضوية من

الشيخان في الجبال. أما هذه الحرب، في ظل رئيس الوزراء هذا، فتبدو مختلفة. النخب السياسية تتطلع إلى الانتخابات المقبلة، وتخشى عواقب الحرب، ولكن اليوم يبدو أن الروس العاديين يريدون- كما بوتين- «أن يقذفوا بقطاع الطرق إلى جهنم».

لم يكن فلاديمير بوتين معروفًا لدى الروس عندما عينه يلتسين رئيسًا للوزراء، واليوم بدأت أعماله في الشيخان- على نحو غير متوقع- ترفع شعبيته في استطلاعات الرأي، مع أنه لم يمتلك الوقت لتوضيح أي سياسات أو برامج، فعند تعيينه في أغسطس/آب، كان 2 في المئة فقط من الذين شملهم الاستطلاع يؤيدونه مرشحًا محتملاً للرئاسة، وبحلول شهر أكتوبر/تشرين الأول حصل على 27 في المئة، بفارق نقطة واحدة فقط عن بريماكوف.

أوفى يلتسين بوعده لبوتين بشأن الانتخابات البرلمانية القادمة؛ إذ لم يكن بحاجة إلى أن يشغل نفسه بها، فقد أسس الإستراتيجيون السياسيون ليلتسين حزبًا جديدًا أسموه (الوحدة)، وكما هو حال بوتين نفسه لم يكن للحزب أي برنامج سياسي أو أيديولوجية، لكن أطر نفسه كجبهة وطنية، واتخذ من الدب رمزًا له، وهي الفكرة التي ادعى بوريس بيريزوفسكي أنها خطرت له في حلم محموم عندما كان يتعالج في المستشفى من التهاب الكبد²⁶.

فرص حزب الوحدة في الفوز بدت ضئيلة، ومع نهاية أكتوبر/تشرين الأول سجل في الانتخابات بشق الأنفس، وكان الفارق كبيرًا بينه وبين ليبرالي يابلوكو، والشيوخيين، والمتسابقين الأوائل؛ الوطن، وتحالف كل روسيا بين لوجكوف وبريماكوف. ما حققه الحزب كان قليلًا، على الرغم من أن ميزانيته كانت تستمد من موارد الكرملين، فضلًا عن دعم القلة الذين ضخوا أموالًا في الحملة، حتى بيريزوفسكي، الذي شعر بمزيد من الإقصاء من قبل يلتسين، استخدم شبكته التلفازية ليظهر الوحشية التي يتمتع بها لوجكوف وبريماكوف، اللذان يمقتهما، وليمجد دور بوتين بكونه قائدًا عامًا بحكم الواقع، وخصص بيريزوفسكي برنامجًا تلفازيًا لأول مرة للمعلق اللامع سيرجي دورينكو، الذي شرع أسبوعًا بعد أسبوع يكيل

التهمة للوجكوف بالفساد والنفاق، وحتى القتل²⁷، كانت الاتهامات شديدة إلى حد القذف، لكنها كانت فعالة على نحو استثنائي.

نظرًا لجنون العظمة لدى يلتسين بشأن التحديات السياسية، أثار ارتفاع شعبية بوتين موجة جديدة من الشائعات بشأن إقالة وشيكة له، واكتسبت هذه الشائعات الزخم في نوفمبر/تشرين الثاني عندما أعرب بوتين عن نيته الترشح للرئاسة في عام 2000م، فافترض الناس حينها أن يلتسين سيقيله كما أقال بريماكوف، ولا يعرفون أن الرئيس العجوز قد استثمر أمواله لإرثه ولأمنه الشخصي في رئيس الوزراء الشاب هذا. وبحلول نهاية عام 1999م كانت المشكلات المادية والقانونية ليلتسين قد تركته أضعف من أي وقت مضى.

كان يوري سكوراتوف لا يزال يناضل ضد كف يده بصفته مدعيًا عامًا في المحكمة، واستمر يذكر الاتهامات المحيطة بتحقيقات مايبتيكس وعلاقاتها (بحاشية) يلتسين، وقد عزز من جهوده هذه القرار الذي اتخذ في سويسرا بتجميد تسعة وخمسين من الحسابات المصرفية المرتبطة بمسؤولين روس. وفي أكتوبر/تشرين الأول رفض مجلس الاتحاد للمرة الثالثة إعادة سكوراتوف، الذي كان يطمح إلى الاحتفاظ بمنصبه مدعيًا عامًا في ظل البرلمان الجديد والرئيس القادم، وقال في مقابلة له في بيته الريفي خارج موسكو: «إن الحاشية بكل تأكيد تخاف، فالיום هم يسيطرون على الوضع، لكن الوضع قد يخرج عن نطاق السيطرة»²⁸.

ارتفاع شعبية بوتين بدأ يلفت انتباه المعارضين المنافسين ليلتسين، وفي 20 نوفمبر/تشرين الثاني التقى بريماكوف ولوجكوف غريمهم التقليدي يلتسين على انفراد، على أمل التفاوض على تسوية سياسية، وبدأ كل منهما يشير علنًا إلى أن تحالفهم قد يدعم ترشيحه للرئاسة، وقد يتنازلون عن طموحاتهم. كان صعود بوتين مذهلاً بقدر ما كان مفاجئًا، وبدا أنه يمثل قوة سياسية جديدة ومستقلة، ولم يكن ذلك بسبب الشيشان فقط؛ لكن في الوحل السياسي الروسي كان يبدو أنه الوحيد الذي لم يلوث بمؤامرات السياسيين ومكائدهم، والقلة التي استهلكت روسيا على مدى السنوات الثماني السابقة. وعلى الرغم من أنه نذر

حياته المهنية ليلتسين و(الحاشية)، تبقى الحقيقة أنه كان يعمل في الغالب على هامش المراقبة العامة منذ عام 1996م، وهذا يعني أنه لم يكن مرتبطاً بالإخفاقات والفضائح المتعددة في الكرملين، وبدت تصريحاته العامة والحادة، وحتى الخشنة منها، منعشة بعد الارتباك والتشويش في إدارة يلتسين. وكتبت صحيفة نيزيفيسامايا غازيتا، في نوفمبر/ تشرين الثاني، أنه في غضون الأسابيع القليلة الثمينة «شخص غير معروف تمامًا، إلى حد ما موظف حيادي» قد يصبح زعيمًا ذا إرادة، «على عكس سابقه»، ليقول للناس ما كان ينوي فعله، وتابعت مُطْلَقَةً عليه وصف: «إحدى الحالات النادرة في تاريخنا السياسي»²⁹.

في ذلك الوقت تجاوزت شعبية بوتين نسبة 40 في المئة، وبات لديه الآن الفوز السياسي ليؤثر في الانتخابات البرلمانية في ديسمبر/ كانون الأول. لم ينضم لحزب (الوحدة) الجديد الذي أسسه الكرملين، والذي- على الرغم من موارد الحكومة، والتغطية الإيجابية له في التلفاز الحكومي، والتبرعات من القلة- بقي في مرتبة منخفضة جدًا في استطلاعات الرأي؛ حتى إنه كان مهددًا بالأصل إلى عتبة الفوز بأي مقعد في مجلس الدوما على الإطلاق³⁰، حتى كان يوم 24 نوفمبر/ تشرين الثاني، الذي يصادف مرور مئة يوم على تسلمه منصب رئاسة الوزراء، وهو اليوم الذي أنقذ فيه بوتين حزب الوحدة من النسيان السياسي بنوع من التأييد، فقال: «لكوني رئيس الوزراء لا أريد مناقشة تعاطفي السياسي، ولكن بوصفي ناخبًا عاديًا سأصوت من أجل الوحدة»³¹، وخلص معظم المحللين السياسيين إلى أن بوتين كان يخاطر ليس فقط بمستقبله السياسي، ولكن بالحزب كذلك، عن طريق ربطه ربطًا وثيقًا جدًا بالكرملين. وكان ما أسيء فهمه هو النداء الأساسي للحزب، كقوة جديدة تحاشت الفكر المتعب لليمين أو اليسار، واحتضنت الوحدة الوطنية، لا الانقسام، خاصة في وقت الحرب.

نُقل يلتسين مرتين إلى المستشفى في الخريف، ولا يزال يعذبه مصيره، وكتب عن أفكاره في هذه المرحلة: «السلطة في روسيا دائمًا ما تنتقل من رئيس إلى آخر بالوفاء الطبيعية، أو بالتأمر أو الثورة، فالقيصر كان ينتهي حكمه إما بوفاته أو بعد انقلاب، وهذا ما كان بالضبط مع الأمين العام للحزب الشيوعي. أعتقد أن النظام الشيوعي ورث العجز عن نقل السلطة

على نحو غير مؤلم»، وأسقط هذا على الإطاحة بخروتشوف عام 1964م، وعبر عن أسفه أن إعلان وفاته في سبتمبر/أيلول 1971م جاء ضمن «خبر صغير، غامض في الصحيفة»³². وفي 14 ديسمبر/كانون الأول، قبل خمسة أيام من الانتخابات، استدعى يلتسين بوتين إلى مقر إقامته في جوركي - 9 لاجتماع سري، حيث التقيا وحدهما.

قال له يلتسين: «يا فلاديمير، هذا العام سوف أتحنى، هذا العام مهم جداً، يجب أن يبدأ القرن الجديد بعهد سياسي جديد، عهد بوتين، هل تفهم؟».

لكن بوتين لم يفهم، وكاد قلب يلتسين يتوقف من رد فعله؛ فقد كانت هناك شائعات طوال الخريف تقول إن يلتسين قد يتحنى وفقاً للدستور، وسوف يسلم السلطة لرئيس الوزراء الحالي، وفي سبتمبر/أيلول استبعد بوتين الفكرة لكونها منافية للعقل، وأضاف: «إذا كنت متأكداً من أي شيء تماماً، فهو أن الرئيس ليس لديه نية في المغادرة، ليس هناك استقالة على الإطلاق»³³، ولكن اليوم أوضح له يلتسين أن هذا ما كان ينوي فعله، وأنه يلعب آخر «لعبة في جعبته»³⁴.

أعطى الدستور الجديد غير المختبر يلتسين تحكماً كبيراً بتوقيت رحيله، ذلك أنه في حال استقال الرئيس، يحق لرئيس الوزراء أن يمارس أعمال الرئاسة حتى تجرى انتخابات في وقت لاحق، خلال تسعين يوماً، ومع أن هذا لا يعطي متسعاً من الوقت للحملة الانتخابية، لكنه يعطي (الشاغل) أو القائم بالأعمال ميزة إيجابية هائلة على منافسيه.

جلس الرجلان بصمت، إلى أن أدرك يلتسين أن بوتين يشعر أنه غير جاهز لرئاسة الجمهورية، وأجاب بوتين أخيراً: «أنا لست جاهزاً لذلك القرار يا بوريس نيكولايفيتش»، وأضاف: «هو مصير صعب إلى حد ما»³⁵. وفي محاولة لإقناعه أوضح له يلتسين أنه وصل إلى موسكو للعمل عندما تجاوز الخمسين من عمره، أي أكبر عمراً من بوتين، ولكن على الرغم من ذلك كان «شخصاً نشيطاً وسليماً معافى»، واليوم أدرك أن حياته السياسية قد استنفدت. فقال بوتين: «أنا أيضاً أريد أن أعيش حياتي بطريقة مختلفة تماماً، لكن لم أكن أعرف أنها ستتحول بهذه الطريقة». وادعى يلتسين أنه من المحتمل أن يعود إلى البناء أو إلى

سفيرد لوفسك، حيث بدأ حياته المهنية من هناك، ثم نظر من النافذة إلى المشهد الثلجي الأبيض، وغرق في التفكير، وعاد بعد ذلك لتناول المسألة من جديد؛ فقال لبوتين محدقاً في عينيه: «لم تجبني». وافق بوتين، في نهاية المطاف، ولا أحد يعرف عن حديثهما، كما قال ليلتسين، أو عن القرار التاريخي الذي اتخذاه.

عند فرز الأصوات في ليلة 19 ديسمبر/كانون الأول، بعد الانتخابات التي كان متنازعا عليها، وتعد أكثر أو أقل عدلاً، حقق حزب الوحدة مفاجأة مذهلة؛ إذ جاء في المركز الثاني برصيد 23 في المئة. بعد الحزب الشيوعي فاز بأكثرية 24 في المئة معززاً قاعدته. تحالف لوجكوف-بريماكوف، الذي بدا على وشك الوصول إلى السلطة قبل أشهر فقط، تراجع إلى 13 في المئة فقط من الأصوات، وكان للتغطية التلفازية السلبية دور مهم في هزيمة قاداته. وقد فاز يابلوكو والائتلاف الليبرالي الجديد الذي تحالف مع يلتسين، واتحاد القوى اليمينية، الذي أيده بوتين أيضاً بوضع كلمات مهذبة، فازوا جميعاً بما يقرب من ذلك بكثير. شرب يلتسين الشمبانيا ليلة الانتخابات متوقفاً للفوز، ولكنه ذهب إلى النوم قلقاً، حيث تسربت النتائج غير الرسمية، وعندما أفاق شعر بأن ثقته ببوتين كانت محقة³⁶. تفاخر يلتسين أنه هياً بوتين «من الغموض إلى الرئاسة، متجاوزاً المقاومة الشرسة» من النخبة السياسية، داخل الكرملين وخارجه، وقالت ابنة يلتسين تاتيانا لاحقاً: «حقاً أن ندخل بوتين في العمل كان من أصعب الأشياء التي واجهناها»³⁷.

بالنسبة إلى يلتسين سيكون هذا فراغاً للإرث، الفراق الذي سيعيد تأسيس البلد الذي سببنيه من أنقاض الاتحاد السوفييتي، وللمرة الأولى في رئاسته المضطربة، يمكن أن يعتمد يلتسين على الأغلبية الموالية للحكومة في مجلس الدوما الجديد، وإنهاء المواجهات السياسية المحبطة على انتقال روسيا. كان له أن يعزز سياساته، بل وأن يقدم سياسات جديدة فيما تبقى له من الأشهر الستة رئيساً للبلاد، ولكنه استقال من منصبه.

يوم 28 ديسمبر/كانون الأول، جلس يلتسين أمام شجرة مزينة في قاعة الاستقبال في الكرملين، وسجل الخطاب التقليدي الجديد للرئيس بمناسبة السنة الجديدة، وعندما

انتهى اشتكى من بحة في صوته، وأنه لم يحب هذه التصريحات، وطلب من فريق التلفاز أن يعود بعد ثلاثة أيام- على الرغم من احتجاجاتهم- لتسجيل خطاب جديد، وكانت تلك حيلة منه لم يعلم بها أحد غيره. عاد إلى مقر إقامته مساءً، واستدعى الرؤساء الحاليين والسابقين لكبار الموظفين، واثنين من مستشاريه المقربين، وفاجأ الحضور بما قاله؛ إنه يعتزم الاستقالة عشية رأس السنة الجديدة. كان لدى يلتسين آخر مفاجأة متهورة لفخامته سيفاجئ بها البلاد؛ إذ يريد أن ينهي رئاسته مع الألفية القديمة ليسمح لفلاديمير بوتين بافتتاح الألفية الجديدة.

في صباح اليوم التالي دعا بوتين إلى الكرملين ليخبره بأنه قد أن أوان ما ناقشاه قبل خمسة عشر يوماً، وعندما وصل رئيس الوزراء قال يلتسين محدثاً نفسه: «انتابني شعور فجأة أنني رجل مختلف»³⁸. النقاش الذي تلا ذلك كان نقاشاً عملياً وتفصيلياً وغير عاطفي، ونوقشت خلال الاجتماع المراسيم التي سيصدرها يلتسين ثم بوتين، وتسجيل خطاب العام الجديد، والإشعارات للوكالات العسكرية والأمنية، ونقل (الحقيبة) التي تحمل رموز إطلاق ترسانة روسيا من الأسلحة النووية وشيفراتها. وعندما انتهيا، خرجا من مكتب يلتسين، ولم يقولوا شيئاً، على الرغم من أن يلتسين شعر بالحاجة إلى قول المزيد، بدلاً من ذلك تصافحا، ثم احتضن يلتسين بوتين في عناق الدب، وقال وداعاً. وكان اجتماعهما الآخر عشية رأس السنة الجديدة³⁹.

يوم 30 ديسمبر/كانون الأول كان بوتين في انتظار يلتسين في حفل استقبال في الكرملين، وقد لوحظ غياب الرئيس المُسن، لكن بسبب نوباته المتكررة من اعتلال صحته بدا الأمر اعتيادياً، وعلى الرغم من أن هذه المناسبة احتفالية، ركز بوتين تصريحاته حول الحرب في الشيشان، التي تحولت إلى حمام دم شنيع حالما حاصرت القوات الروسية جروزني، وحولت المدينة إلى أنقاض، لم يُرَ مثل لها في روسيا- أو أي مكان آخر- منذ الحرب الوطنية العظمى.

ظل الآلاف من المدنيين محاصرين داخل الأقبية، مرعوبين، مع عدم وجود كهرباء وتدفئة، أو مياه جارية، وواصل المتمردون الشيشان السيطرة على كثير من جروزني، وهو ما أسفر عن مقتل مئات الجنود الروس في محاولة للاستيلاء عليها. وكرر أصلان مسخادوف دعواته للتفاوض حول وقف إطلاق النار، على الرغم من تعهده بمواصلة القتال، معلناً أنه «لو كانت الحرب تدوم 10 سنوات، روسيا لن تتمكن من إخضاع الشيشان وشعبها»⁴⁰. ومع استفحال القتال، واجهت روسيا انتقادات متزايدة من أوروبا والولايات المتحدة حول الأزمة الإنسانية التي تتكشف، وكان من بينها تنفيذ الجنود الروس عمليات إعدام سريعة بإجراءات موجزة في عمليات (التطهير) في المناطق المحررة، كما تبين ذلك بالأدلة، وأن «الجنود في المناطق التي يسيطر عليها الروس في الشيشان- على ما يبدو- لديهم تفويض مطلق بالتهب والسلب». وكتبت هيومن رايتس ووتش أن كثيراً من الناس قد عادوا إلى منازلهم ليجدوها بعد وقت قصير جُردت من الأدوات المنزلية وغيرها من الأشياء الثمينة. ووجهت هيومن رايتس ووتش رسالة إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، داعية إلى إجراء تحقيق دولي في جرائم الحرب⁴¹.

في الكرملين نحى بوتين جانباً الشكوك حول وحشية الحرب، قائلاً إن واجب البلاد سحق المتمردين (الوقحين) بأي ثمن، وعقب قائلاً للضيوف المجتمعين قبل رفع نخب العام الجديد: «لسوء الحظ ليس كل شخص في الدول الغربية يفهم هذا، ولكننا لن نتسامح مع أي إهانة للكرامة الوطنية للروس، أو أي تهديد لسلامة البلاد»⁴².

استيقظ يلتسين في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وقبل مغادرته إلى الكرملين، أخيراً أخبر زوجته، ناينا، عن قرار استقالته، فسُرَّت لذلك وقالت: «يا له من أمر رائع!»، وتساءلت: «أخيراً؟»، وحتى ذلك الوقت لم يكن يعرف بهذا سوى ستة أشخاص فقط. وانطلق إلى الكرملين للمرة الأخيرة بصفته رئيساً، من دون حرسه رئاسي أو مساعديه، الذين كانوا ينظمون شؤون بريده، وجدول أعماله، وغيرها من الوثائق، على مكتبه. دخل فولوشين كبير الموظفين عنده يحمل مرسوماً ينص على أن الاستقالة ستدخل حيز التنفيذ في منتصف

الليل، فاستدعى يلتسين بوتين، الذي وصل في الوقت المحدد عند الساعة 9:30، ثم قرأ المرسوم بصوت عال، ونظر إلى بوتين، الذي «ابتسم ابتسامة تحمل شيئاً من الحرج»، ثم صافح يلتسين.

سجل يلتسين خطاباً جديداً، وأخذ يوماشيف التسجيل بسيارة مصفحة إلى برج التلفاز أوستانكينو مع أوامر بيته ظهرًا، وعندما بدأت الألفية الجديدة في المحيط الهادئ ساعة إثر ساعة حسب المناطق الزمنية، بدأ يلتسين قائلًا: «أصدقائي الأعزاء»، للمرة الأخيرة.

«لقد سمعت الناس أكثر من مرة يقولون إن يلتسين متمسك بالسلطة لأطول مدة ممكنة، ولن يدعها تقلت من يديه»، ثم قال: «هذه كذبة»؛ إنه يريد صنع «سابقة حيوية طوعية في انتقال السلطة إلى رئيس منتخب جديد»، لكنه لن ينتظر حتى الانتخابات الرئاسية المقررة في يونيو/حزيران، «يجب أن تدخل روسيا الألفية الجديدة مع سياسيين جدد، ووجوه جديدة، وأشخاص جدد أذكاء، وأقوياء وأكثر حيوية، وأما نحن، من الذين كانوا في السلطة سنوات عديدة، فيجب أن يتركوا». يفرك يلتسين دمعة من عينه، وينهي بنداء شخصي لافت للنظر إلى البلد الذي قاده ثماني سنوات: «أريدكم أن تسامحوني على الأحلام التي لم تتحقق، والأشياء التي بدت سهلة [لكن] تبين أنها صعبة لا تحتمل. أطلب عفوكم لإخفاقي في تحقيق آمال الذين صدقوني عندما قلت إننا سوف نقفز من الماضي الرمادي الراكد الشمولي إلى مستقبل مشرق ومزدهر ومتحضر، كنت أعتقد بذلك الحلم، وأعتقد أننا نستطيع اجتياز تلك المسافة بقفزة واحدة، ولكننا لم نفعل ذلك»⁴³.

ليودميلا لم تشاهد خطاب يلتسين، ولكنها بعد خمس دقائق من انتهائه، تلقت اتصالاً هاتفيًا من صديقة لها: «ليودا، أنا أهنئكم»، قالت. فأجابت ليودميلا: «وأنا أهنئك»، وكانت تظن أنهم يتبادلن أطيب التمنيات بالعام الجديد⁴⁴، فاضطرت صديقتها أن تشرح لها أن زوجها أصبح رئيس البلاد بالإناية، وكان بوتين لم يكشف سر يلتسين بعد اجتماعهم الأول في 14 ديسمبر/كانون الأول، أو التوقيت بعد اللقاء الثاني في 29 ديسمبر/كانون الأول، فسمعت بذلك مع بقية روسيا. هذا الارتقاء لزوجها في موسكو تركها تتعجب في بعض الأحيان من أنها تزوجت من «رجل كان بالأمس مجرد نائب رئيس بلدية مجهول في بطرسبورغ بات اليوم رئيسًا»⁴⁵.

وتحقق ما كانت تخشاه من أن تعود حياتهما كما كانت حين عاد إلى الـ FSB، وأصبحت حياة أسرتهما مقيدة. الفتاتان اليوم بلغتا الخامسة عشرة والثالثة عشرة، وعليهما التوقف عن الذهاب إلى المدرسة الألمانية التي تدرسان بها منذ وصولهما إلى موسكو، وأصبحتا تدرسان في المنزل، ويرافقهما حراس الأمن في الرحلات النادرة للمسرح أو السينما. وردًا على سؤال، قالت ليودميلا لديها فقط ثلاث صديقات مقربات. عندما عاد بوتين إلى الـ FSB، اضطرت إلى إنهاء صداقة كانت قد بدأتها مع إيرين بيتش، زوجة مصرفي ألماني، حين كانوا في بطرسبورغ. «لم تكن سعيدة على الإطلاق»، قالت بيتش التي ألقت كتابًا أسمته صداقات لذيذة، وهو كتاب مثير حول أسرة بوتين وصفت فيه زواجهما العاصف⁴⁶. في ذلك الكتاب تشكو ليودميلا من أن زوجها يمنعها من استخدام بطاقة الائتمان - لا شك أنه كان قلقًا حول الفضيحة المحيطة ببنات يلتسين - وقالت مازحة إن أسلوب حياته كان كمصاصي الدماء؛ «إنها عزلة مروعة»، قالت ليودميلا لبيتش حين أنهت صداقتها.

«لم نعد نسافر إلى حيث نريد أن نذهب، ولم نعد قادرين أن نقول ما نريد. كنت قد بدأت للتو العيش». وكذلك زوجها، الذي كان يرفض آراءها، حتى إنه قال ذات مرة لبيتش، خلال زيارة مطولة لهما إلى الريف، واستمرت أسبوعًا كاملًا في أرخانجيلسكوي، إن أي شخص يمكن أن يقضي ثلاثة أسابيع مع ليودميلا يستحق نصبًا تذكاريًا⁴⁷. اليوم ليودميلا على وشك أن تصبح السيدة الأولى، تمارس دورًا غريبًا حديثًا ينظر إليه الروس بصورة متناقضة. لقد بكت عندما علمت بوظيفة زوجها الجديدة؛ لأنها أدركت «أن حياتنا الخاصة قد انتهت ثلاثة أشهر على الأقل، إلى حين إجراء الانتخابات الرئاسية، أو ربما أربع سنوات»⁴⁸.

بعد إعلان يلتسين، رأس بوتين اجتماعًا لمجلس الأمن الروسي، وهو الذي رأسه حتى توليه منصب رئيس الوزراء قبل أربعة أشهر فقط، وشمل أعضاؤه قادة مجلس الدوما والمجلس الاتحادي، فضلًا عن وزراء الدفاع والداخلية وقادة الاستخبارات، الذين كانوا جميعهم قد قدموا إلى موسكو قبل أن يأتي هو إليها بكثير، ولديهم من الخبرة في الحكومة والسياسة أكثر مما يمتلك، لكنهم اليوم يستمعون إليه وهو يوجز أولوياته.

تعهد بعدم حدوث أي تغيير في السياسة الخارجية لروسيا، ولكنه ألمح إلى عهد جديد في الشؤون العسكرية: يجب على روسيا تحسين أسلحتها، ومعالجة المشكلات الاجتماعية لصفوف جنودها، «وهي الجوانب التي أهملت في الآونة الأخيرة»، وأشار إلى الغياب الواضح للنائب العام يوري سكوراتوف، الذي كان لتحقيقاته مثل ما كان لأي شيء آخر لدفعه إلى منصبه، لكن أضاف بعد ذلك أن المدعي العام بالوكالة، فلاديمير أوستينوف، «ينفذ عمله على أكمل وجه كما يبدو». وكانت ملاحظاته وجيزة وقصيرة تقريباً في هذا المقام. وحث على اليقظة في العام الجديد؛ نظراً إلى الخوف من الأخطاء المحتملة في الحاسوب Y2K التي تكتسح جميع أنحاء العالم، وكانت تصدر أهم الأخبار في ذلك اليوم، حتى استقالة يلتسين.

ثم سجل بوتين خطابه الخاص للسنة الجديدة، الخطاب الذي يسجله يلتسين عادة ويسلمه ليبيث في منتصف الليل في موسكو. وبدأ بكلام منمق بأنه هو وعائلته كانوا يخططون للجلوس أمام التلفاز في تلك الليلة والاستماع إلى خطاب يلتسين، «لكن أخذت الأشياء منحى مختلفاً»، وأكد للمستمعين أنه لن يكون هناك فراغ في السلطة ولا «للحظة واحدة»، وتعهد بمواصلة الجهود لاستعادة القانون والنظام؛ «أنا أعدكم أن أي محاولات للعمل تتعارض مع القانون والدستور الروسي ستُبتر فوراً». وختم الحديث بتقديم شكره للرئيس الأول في البلاد، وأضاف: «سنكون قادرين على رؤية أهمية ما قدمه بوريس يلتسين لروسيا بعد مرور بعض الوقت».

بينما كان يلتسين يتأهب لمغادرة الكرملين، توقف في الردهة خارج مكتبه - الذي أصبح اليوم مكتب بوتين - وأخرج من جيبه القلم الذي استخدمه لتوقيع آخر مرسوم أصدره، وقدمه لبوتين في أثناء توجههما إلى باب الكرملين. كانا رجلين مختلفين حتى في المزاج واللياقة البدنية، ولم تكن العلاقة بينهما - كما قال بوتين في وقت لاحق - «وثيقة للغاية»؛ فلم تكن العلاقة حميمة كتلك التي كانت قائمة بينه وبين سوبتشاك. وقال بوتين في وقت لاحق: «أستطيع القول إنه عندما بدأ مناقشة مسألة استقالته معي لم أكن أشعر بدفء مشاعره

تجاهي»⁴⁹. اليوم يريد يلتسين أن يقول «شيئاً مهماً» عن العباء الذي سيتحمله، قال له: «اعتن.. اعتن بروسيا».

كان الثلج يتساقط ناعماً لطيفاً يلف ساحات الكرملين حينما خرج يلتسين يشق طريقه ويلوي جسده الضخم الواهن داخل السيارة المصفحة التي ستوصله إلى المنزل، واتصل به بيل كلينتون لدى عودته إلى بيته الريفي، لكن يلتسين أمر مساعده أن يطلب إليه الاتصال في وقت لاحق، وذهب إلى البيت، وحظي بغفوة⁵⁰.

في ذلك المساء وقَّع بوتين مرسومه الأول، وكان من سبع صفحات طويلة، بعد أن أعدّه مساعده يلتسين في اليومين السابقين، على الرغم من أن يلتسين ادعى أنه لا علم له به حتى صدوره⁵¹، وهو يمنح الرئيس السابق- يلتسين- مجموعة من الفوائد والامتيازات؛ من ذلك الراتب، والموظفون، واستخدام المنزل الريفي الذي قضى فيه كثيراً من حياته والنقاهاة في ولايته الثانية، ومنح يلتسين أيضاً حصانة من الملاحقة القضائية، وحماية ممتلكاته وأوراقه من البحث أو الاستيلاء عليها. وبمسحة من القلم الذي أعطاه إياه يلتسين، أنهى بوتين التهديد الذي كان يمثله سكوراتوف له، والذي كاد يؤدي بحياته إلى الدمار.

ثم نفذ بوتين مفاجأته الخاصة للسنة الجديدة، إذ سافر سرّاً هو وخليفته في ال FSB، نيكولاي باتروشييف، مع زوجتيهما، ومغنية شعبية، إلى داغستان. أخبر بوتين وزوجته ابنتيهما أنهما سيذهبان في تلك الليلة إلى مكان لم يذهبا إليه، وكان قد قدم لهما الهدايا- حاسوباً لكل منهما- وتركاهما في موسكو مع شقيقة ليودميلا، وواحدة من صديقات ماشا.

وبعد وصوله إلى داغستان، صعد بوتين وآخرون في ثلاث مروحيات عسكرية نحو ثاني أكبر مدينة في الشيشان، غودرميس، التي حُرّرت حديثاً من المتمردين الشيشان، وكان الجو سيئاً جداً، والرؤية محدودة، حتى إن الطائرات الحوامة كانت تكاد ترجع إلى الوراء. وعندما حلتّ السنة الجديدة والألفية الجديدة، كانوا لا يزالون في الجو، حيث فتح اثنتان

من زجاجات الشمبانيا ومررها على من حوله، وشرب من الزجاجات نفسها؛ لأنه لم يكن لديهم كؤوس.

عندما هبطت الطائرات في العاصمة الداغستانية ماخاتشكالا، استقلوا مركبات عسكرية بحراسة مشددة، وقاد السيارة ساعتين ونصف الساعة مرة أخرى إلى الشيشان. كان قد انبجح الفجر تقريباً عندما استعرض بوتين القوات الروسية هناك، الذين «بدوا متعبين ومضطربين قليلاً كما لو أنهم يريدون أن يقرصوا أنفسهم ليتأكدوا أنهم لا يحملون»، كما تذكر ليودميلا⁵².

كانت ليلة هادئة في غودرميس، لكن جروزني، التي لم تكن تبعد سوى ثلاثة وعشرين ميلاً عنهم، عانت إحدى أعنف ليالي القصف حتى الآن.

لبس بوتين الياقة المدورة، وسلم مرة أخرى الميداليات والسكاكين الاحتفالية للجنود، وقال للجنود المحتشدين هناك: «أريد منكم أن تعرفوا أن روسيا تُكبرُ عاليًا ما تفعلونه»، وأضاف: «هذا ليس مجرد استعادة لشرف روسيا وكرامتها، وإنما للحد من تفكك الاتحاد الروسي»؛ فقد انتهى عهد يلتسين، وبدأ عهد بوتين.